لضبطها. فأقبل على دمشق سنة ٥٧٠ هـ فاستقبلته بحفاوة (١) فاستولى على بعلبك وحمص وحماة وحلب (٢) وكانت حلب عاصمة الملك الصالح. ثم ترك حلب للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين (٣) كما ترك له قلعة إعزاز التي طلبتها من صلاح الدين طفلة صغيرة لنور الدين، وقد أوحى الكبار إليها بطلبها من صلاح الدين، الرجل النبيل (٤)

وحزم صلاح الدين عند حلب جيشا حلب للملك الصالح وجيشا لسيف الدين، وقد تحالفا ضد صلاح الدين (٥)

قطع صلاح الدين حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين، وأزال اسمه عن النقود في بلاده، وحاصر مدينة حلب، وطال الحصار حتى راسلوه في الصلح، على أن يكون لصلاح الدين كل ما تحت يده، ولهم ما تحت أيديهم، فوافق صلاح الدين، ورفع الحصار عن حلب في العشر الأول من شوال سنة ٥٧٠ هـ ووصل إلى حماة، ووصلت إليه خلع الخليفة مع رسوله (٦)

وفي شهر محرم سنة ٥٧٠ هـ وصل أسطول صقلية إلى مدينة الإسكندرية. لقد كان الأسطول ضخماً في بواخره، وعتاده ورجاله. لقد كان عدد المشاة خمسين ألفاً وكان عدد الفرسان

---

(١) الإعلام ٨/ ٢٢٠ والكامل في التاريخ ١١/ ٤١٦ و ٤١٧

(٢) الأعلام ٨/ ٢٢٠

(٣) الأعلام ٨/ ٢٢٠

(٤) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٣١

(٥) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٢١

(٦) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٢٢

أيضاً وخمسمائة (١) وهذه الحملة كانت استجابةً لبعض المناوئين لصلاح الدين من المصريين. وفوجىء الأسطول بأهل الإسكندرية الأبطال الذين قاوموا العدو أشد مقاومة، وجاءهم العون من القريبين منهم، واتجه إليهم صلاح الدين بجيشه، وأرسل طائفة من الجيش إلى دمياط احتياطاً (٢) فهزم الله تعالى أسطول صقلية شر هزيمة، واستحر فيهم القتل، وكثر الأسر، ولم ينج منهم إلا القليل، وكفى الله تعالى المؤمنين شرهم (٣)

وكان وصول أسطول صقلية الإسكندرية بتاريخ ٦/١٢/٥٦٩هـ (٤)

وكانت هزيمته في شهر محرم سنة ٥٧٠هـ (٥)

وهكذا كان صلاح الدين يبني دولته، ويحارب خصومه من الولاة المسلمين، ومن الفرنج، ويتوسع على حساب هؤلاء وهؤلاء (٦)

انصرف صلاح الدين إلى عملين جليلين، أحدهما الإصلاح الداخلي في مصر والشام، بحيث كان يتردد بين القطرين. والثاني دفع غارات الصليبيين ومهاجمة حصونهم وقلاعهم في بلاد الشام (٧)

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/ ٤١٢

(٢) الكامل في التاريخ ١١/ ٤١٣

(٣) الكامل في التاريخ ١١/ ٤١٤

(٤) الكامل في التاريخ ١١/ ٤١٢

(٥) الكامل في التاريخ ١١/ ٤١٢

(٦) انظر - مثلاً - الكامل في التاريخ ١١/ ٤٢٩ و ٤٣٠ و ٤٣٧

(٧) الأعلام ٨/ ٢٢٠

بدأ صلاح الدين إصلاحه الداخلي بعمارة قلعة مصر، وأنشأ مدارس وآثاراً فيها (١)

لقد أمر صلاح الدين ببناء سور القاهرة العظيم (٢) وطوله تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع، بالذراع الهاشمي، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين (٣) كما قام صلاح الدين بعمل الأوقاف العظيمة (٤)

وإذا كان صلاح انكسر من الرملة سنة ٥٧٣ هـ (٥) بسبب توغله في بلاد الفرنج، وعدم أخذ جيشه الحذر، فما أكثر انتصارات المسلمين على الفرنج. ومن انتصارات المسلمين العظيمة انتصارهم عند مخاضة الأحزان بالقرب من بانياس (٦) فقد تم أسر أكثر ملوك الفرنج في هذه المعركة (٧)

وقد دانت لصلاح الدين البلاد من آخر حدود النوبة جنوباً، وبرقة غرباً، إلى بلاد الأرمن شمالاً، وبلاد الجزيرة والموصل شرقاً (٨) كما أنه ضم إليه بلاد اليمن (٩)

---

(١) الأعلام ٨/ ٢٢٠

(٢) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٣٦

(٣) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٣٧ وانظر صلاح الدين الأيوبي البطل الذي انتصر على الغرب ١٢٤ - ١٢٦

(٤) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٤٠ و ٤٤١

(٥) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٤٢

(٦) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٥٥

(٧) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٥٥ و ٤٥٦

(٨) الأعلام ٨/ ٢٢٠

(٩) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٨٠ والنوادر السلطانية ٤٦

وذلك سنة ٥٧٨ هـ (١)

وفي شهر رجب سنة ٥٧٧ هـ توفي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها، وعمره نحو تسع عشرة سنة، إثر مرض عضال (٢)

وفي سنة ٥٧٩ هـ استولى صلاح الدين على حلب (٣) وأعطى صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي مقابل حلب (٤) مدن سنجار، ونصيبين، والخابور، والرقة، وسروج (٥)

بمثل هذه المعاملة الحسنة توسعت دولة صلاح الدين الأيوبي.

صدف صلاح الدين طرد الصليبيين واسترداد بيت المقدس، ولم يكن صدفه الملك لذات الملك.

إن من ملأ الصليبيين من الحكام المسلمين ينذره صلاح الدين المرة بعد المرة، ويطلب منه أن يوالي المسلمين وإلا قضى عليه. فإذا قضى عليه صلاح الدين أقطع أولياءه تلك الديار. وفي كانت ديار ه نافعة للمسلمين عسكرياً أو تجارياً أعطى صاحبها الكثير، كما فعل مع صاحب حلب. وفي أبى قضى عليه قضاءً مبرماً. ويكتفي صلاح الدين من كل الحكام بالاستجابة له حينما يدعوهم إلى جهاد

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/٤٨٠

(٢) الكامل في التاريخ ١١/٤٧٢

(٣) الكامل في التاريخ ١١/٤٩٦

(٤) الكامل في التاريخ ١١/٤٩٦

(٥) الكامل في التاريخ ١١/٤٩٧

الصليبيين، ولا يقبل عذراً لمعتذر. إنّ هذا هو شرط صلاح الدين الوحيد على الحكام. وحينما يجيئون إليه يكونون على أتم أهبة واستعداد للقتال الفوري.

ولا يهتم صلاح الدين من الحكام بشيء وراء ذلك.

وقد استقر ملك صلاح الدين بملك حلب (١)

وقد جعل صلاح الدين ولده الملك الظاهر غازي ملكاً على حلب (٢)

لقد ظلت الحروب موصولة بين المسلمين من ناحية، وبين الصليبيين من ناحية. وكانت كفة المسلمين آخذة دواماً في الرجحان. وقد أدرك المسلمون جميعاً أنّ وسيلتهم الوحيدة لاسترداد حقوقهم، وفي مقدمة هذه الحقوق القدس الشريف، رفع راية الجهاد في سبيل الله تعالى. وبفضل الله تعالى راية الجهاد في سبيل الله تعالى لا تزال ترفرف عالية خفاقة منذ أن رفعها أول مرة الملك المسلم الشهيد عماد الدين زنكي.

وانظر إلى فحوى هذا النص الصحيح المعنى (٣): إنّ عماد الدين زنكي كان أميراً صغيراً يحاول صدم قوة المسيحيين في عنفوانها. وكان نور الدين يحارب المسيحيين وهم لا يزالون محتفظين بكثير من قوتهم التي تزداد دائماً. وكان الوقت ملائماً لانتصار صلاح الدين في جهاده أكثر مما كان من

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/ ٢٩٧ والنوادر السلطانية ٧٣

(٢) الكامل في التاريخ ١١/ ٥٠١

(٣) صلاح الدين الأيوبي البطل الذي انتصر على الغرب ص ٤٤ و ٤٥

مدّة من سبقه».

بقي علينا أن نذكر ولا ننسى أنّ عماد الدّين زنكي، أوّل من رفع راية الجهاد في سبيل الله تعالى، فقد حقّق الكثير من الانتصارات على الصّليبيّين، وأهمّ انتصار له استرداده مملكة الرّها سنة ٥٣٩ هـ أولى الممالك الثّلاث الّتي أسّسها الصّليبيّون.

وبقي علينا كذلك أن نذكر ولا ننسى أن نور الدّين زنكي، ثانيًا من رفع راية الجهاد في سبيل الله تعالى، فقد حقّق الكثير من الانتصارات على الصّليبيّين، وأهمّ انتصار له فتح حصن حارم غرب حلب سنة ٥٥٩ هـ.

وبقي علينا كذلك أن نذكر ولا ننسى أنّ صلاح الدّين الأيّوبيّ، ثالثًا من رفع راية الجهاد في سبيل الله تعالى، فقد حقّق الكثير من الانتصارات على الصّليبيّين. وهو بإذن الله تعالى في طريقه كي ينصره الله تعالى في معركة حطّين سنة ٥٨٣ هـ وكي يسترد إثر هذا الانتصار القدس الشّريف، والكثير الهائل من المدن، والقلاع، والحصون(١) بأكثر من نور الدّين زنكي، ومن والده عماد الدّين زنكي.

والحقيقة أنّ ثمّة الكثير من اللّحظات والنّصوص الّتي نودّ الإيماء إلى بعضها، كي نقف على شيء من التّضحيات الّتي بذلتها الأمّة الإسلاميّة، ثمنًا لانتصاراتها المجيدة بإذن الله تعالى.

---

(١) انظر ضمن النّوادر السّلطانيّة ص ٤٨ ففيه أسماء المدن والحصون الّتي يسّر الله فتحها على يد صلاح الدّين الأيّوبيّ.

في معركة مرج عكا مرض صلاح الدين مرضاً شديداً بسبب دمامل ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون متكئاً على جانبه إن كان بالخيمة. وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو، وقد رتب الناس ميمنة، وميسرة، وقلباً تعبئة القتال. وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأمراء القواد، ومن العصر إلى صلاة المغرب. وهو صابر على شدة الألم وقوة ضربان الدمامل، وابن شداد يتعجب من ذلك فيقول: إذا ركبت نزولاً عن أكلها حتى أنزل. وهذه عناية ربانية (١)

وفي معركة الخروبة مرض مرضاً شديداً، ومع ذلك رتب العسكر للقاء العدو تعبئة الحرب، وجعل طرف الميمنة الملك العادل، وطرف الميسرة تقي الدين، وجعل ولديه الملك الظاهر والملك الأفضل القلب. ونزل هو وراء القوم يطلبهم (٢) وأتى الليل. وضربت له خيمة لطيفة. وبات ابن شداد والطبيب تلك الليلة أجمع يمرضه ونشاغله. وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى حتى لاح الصباح، ثم ضرب البوق، وركب هو، وركبت العساكر، وأحدقت بالعدو. وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتساباً (٣) الملك الظاهر، والملك الأفضل، والملك الظافر، وجميع من حضر منهم. ولم يزل يبعث منهم عنده حتى لم يبق عنده

---

(١) النوادر السلطانية ص ٤٢

(٢) النوادر السلطانية ص ٤٥

(٣) وانظر النوادر السلطانية ص ٥٠ في أمر صلاح الدين أولاده بالقتال.

إلّا أنا والطّبيب وعارضُ الجيش. والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظنّ النّاظر لها عن بُعْد أن تحتها خلقاً عظيما (١)

وقد شغل صلاح الدّين الجهاد والمرض عن الصّيام الكثير من الأيّام. وقبل موته كان صام بدل الفائت. وكان الطّبيب يلومه وهو لا يسمع، ولم يزل حتّى قضى ما كان عليه (٢)

ويقول ابن شدّاد عن صلاح الدّين (٣): «ما رأيته استكثر العدوّ أصلاً، ولا استعظم أمرهم قطّ. وكان مع ذلك من حال الفكر والتّدبير، تذكر بين يديه الأقسام كلّها، ويرتّب على كلّ قسم بمقتضاه، من غير حِدّة ولا غضب يعتريه رحمه الله».

ويقول ابن شدّاد أيضاً (٤): «وكان رحمه الله يمرض ويصحّ، وتعتريه أحوالٌ مهولة، وهو مصابرٌ مرابط، وتتراءى النّاران، ونسمع منهم صوت النّاقوس، ويسمعون منّا صوت الأذان، إلى أن انقضت الوقعة على أحسن حالٍ وأيسره، قدّس الله روحه، ونوّر ضريحه».

ويقول ابن شدّاد (٥) عن شغف صلاح الدّين بالجهاد: «ولقد كان الجهاد وحُبّه والشّغف به قد استولى على قلبه وسائر

---

(١) النّوادر السّلطانيّة ص ٥٢
(٢) النّوادر السّلطانيّة ص ٨٦
(٣) النّوادر السّلطانيّة ص ٢٠
(٤) النّوادر السّلطانيّة ص ٢٠
(٥) النّوادر السّلطانيّة ص ٢١

جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديثٌ إلا فيه، ولا نظرٌ إلا في آلته، ولا كان له اهتمامٌ إلا بر جاله، ولا ميلٌ إلا إلى من يذكره ويحثّ عليه. ولقد ضجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله، وأولاده، ووطنه، وسكنه، وسائر ملاذّه. وقنع من الدنيا بالسكون في ظلّ خيمةٍ تهبّ بها الرياح يمنةً ويسرة. ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحة على مرج عكّا، فلو لم يكن (صلاح الدين) في البرج وإلا قتلته. ولا يزيده ذلك إلا رغبةً ومصابرةً واهتماماً»

ويقول ابن شدّاد (١): «وكان الرجل إذا أراد أن يتقرّب إليه يحثّه على الجهاد، أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد. ولقد أُلّف له كُتُبٌ عدّةٌ في الجهاد. وأنا ممّن جمع له فيه كتاباً، جمعتُ فيه آدابه، وكلّ آيةٍ وردت فيه، وكلّ حديث رُوِيَ في فضله، وشرحتُ غريبها. وكان، رحمه الله، كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل عزّ نصره»

ويقول ابن شدّاد عن صلاح الدين (٢): «فقال (صلاح الدين) أنا أستفتيك (يا ابن شدّاد): ما أشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله. فقال (صلاح الدين) غايةُ ما في الباب أن أموت أشرف الميتات»

---

(١) النوادر السلطانية ص ٢١

(٢) النوادر السلطانية ص ٢٣

ويقول ابن شداد (١): " ولقد رأيته ليلة على صفد (٢) وهو يحاصرها وقد قال: لا ننام الليلة حتى تنصب لنا خمسة مناجيق (٣) ورتب لكل منجنيق فوقا يتولون نصبه. وكنا طول الليل في خدمته قدس الله روحه، في ألذ مفاكهة وأرغد عيش. والرسل تتواصل تخبره بأن قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا، ومن المنجنيق الفلاني كذا. حتى أتى الصباح وقد فرغ منها. ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها. وكانت من أطول الليالي وأشتها باردا ومطرا ".

ويقول ابن شداد (٤): " ورأيته وقد وصل إليه خبر وفاة تقي الدين عمر، ابن أخيه، ونحن في مقابلة الإفرنج جريدة (٥) على الرملة. وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام والناس تقف على ظهر (٦) إلى الصباح. ونحن بالرملة. وبيننا وبينهم شوط فرس لا غير. فأحضر الملك العادل، وعلم الدين سليمان بن جندر، وسابق الدين بن الدايه، وعز الدين بن المقدم.

---

(١) النوادر السلطانية ص ٦٢ وانظر صفحة ٩٥

(٢) صفد، بالتحريك: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام. معجم البلدان.

(٣) مناجيق جمع منجنيق، ومنجنيق، آلة قديمة من آلات الحصار كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها. مؤنثة.

(٤) النوادر السلطانية ص ٦٧

(٥) جريدة: كتيبة.

(٦) المراد بالظهر الخيل.

وأمر بالناس فطردوا من قريب الخيمة، بحيث لم يبق حولها أحدٌ زيادةً عن غلوة (١) سهم. ثمّ أظهر الكتاب، ووقف عليه، وبكى بكاءً شديداً حتّى أبكانا، من غير أن نعلم السّبب. ثمّ قال: رحمه الله، والعَبْرَةُ تخنقه، تُوفِّي تقيّ الدّين.

فاشتدّ بكاؤه وبكاء الجماعة. ثمّ عدتُ إلى نفسي فقلت: استغفروا الله تعالى من هذه الحالة، وانظروا أين أنتم، وفيمَ أنتم، وأعرضوا عمّا سواه.

فقال - رحمه الله - نعم. أستغفر الله. وأخذ يكرّرها، ثمّ قال: لا يعلم بهذا أحد.

واستدعى بشيءٍ من الماورد فغسل عينيه، ثمّ استحضر الطّعام، وحضر النّاس، ولم يعلم بذلك أحدٌ حتّى عاد العدوّ إلى ياغا، وعدنا نحن إلى النّظرون. وهو محلّ ثِقْلِنا".

ويقول ابن شدّاد (٢): "وكان رحمه الله شديد التّشغّف والشّفقة بأولاده الصّغار. وهو صابرٌ على مفارقتهم، راضٍ ببعدهم عنه. وكان صابراً على مُرِّ العَيْشِ وخشونته، مع القدرة التّامّة على غير ذلك. احتساباً لله تعالى".

---

(١) الغلوة، بفتح الغين وسكون اللام وفتح الواو: مقدار رمية سهم. وتقدر بثلاث مئة ذراع إلى أربع مئة.

(٢) النوادر السلطانية ٢٧ ص

ونود أن نقف عند موقف معيّن لصلاح الدين الأيوبي تجلّت فيه بطولته الخارقة، وهذا الموقف رمز لسائر المواقف الأخرى لهذا البطل المسلم الفذ، تلك المواقف التي توّجت بفضل الله تعالى بانتصار حطّين واسترداد بيت المقدس.

وهذا الموقف كان في معركة أرسُوف بالفتح ثمّ السكون، وضمّ السين المهملة، وسكون الواو، وفاء. مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا (١) وكانت هذه المعركة يوم السبت ١٤/٨/٥٨٧هـ (٢) وهي من أشقّ المعارك على المسلمين. فلمّا علم صلاح الدين باتجاه العدوّ إلى أرسوف، فانطلق صلاح الدين بجيشه، وكان الجيش يسير دائماً على تعبئة. وأرسل صلاح الدين الجيش كلّه إلى المعركة، ولم يبق مع صلاح الدين سوى صبيّين على ناقتين وكذلك أخوه الملك العادل، والسهام تتجاوزهما. ونشبت معركة حامية. وقاتل الفريقان قتالاً مستميتاً. وكثر القتل والجرح في العدوّ. وطمع فيهم المسلمون. ثمّ استجمع العدوّ قواه، ورأى أنّه لا ينجيه إلّا الحملة، فاندفع، فانهزمت ميمنة المسلمين والميسرة والقلب. وكان المؤلّف ابن شدّاد في القلب، فانجفل إلى مقرّ السلطان. ولم يبق السلطان عنده سوى سبعة عشر مُقاتِلاً، وأرسل الجميع إلى القتال. ولكنّ أعلام المسلمين ترفرف، وطبول المسلمين تدقّ. فأمر صلاح الدين أصحاب الطبول باستمرار الضرب عليها

---

(١) معجم البلدان أرسوف ١/٥٠١

(٢) النوادر السلطانية ١٨٣

بقوة وعنف. وكلما مر به ضارب أمر باستدعائه، أو استحيا من الهرب وانضم إلى صلاح الدين، وعاد إلى صلاح الدين الذين كانوا قد هربوا حتى ثابت العسكر بأسرها(١) وحمل العدو مرة، وثانية، وثالثة، والجند يتقهقرون. ومن التقهقر يقاتلون. حتى وصلوا إلى تل، وخلفه بساتين. فخشي العدو أن يكون هناك كمين. فتوقف القتال. وعلى تل نزل صلاح الدين وليس في خيمة(٢)؛ " ولقد كنت في خدمته، رحمة الله عليه، أسقيه وهو لا يقبل السلق. وظلل عليه بمنديل. وسألناه أن يطعم شيئاً من الطعام، فأحضر له شيء لطيف. فتناول منه شيئاً يسيراً " (٣) : " وجلس ينتظر الناس من العقر من السقي. والجرحى يحضرون بين يديه. وهو يتقدم بمداواتهم وحملهم. وقتل في ذلك اليوم رجالة كثيرة. وجرح جماعة من الطائفتين. وكان ممن ثبت الملك العادل، رحمة الله عليه، والطواشي قايماز النجمي، والملك الأفضل ولده. وصدم في ذلك اليوم، وانفتح رمل كان في وجهه، وسار منه دم كثير على وجهه، وهو صابر محتسب في ذلك كله، رحمة الله عليه. وثبت في ذلك اليوم طلب (جيش) الموصل. ومقدمه علاء الدين، وشكره السلطان على ذلك " (٤)

---

(١) النوادر السلطانية ص ١٨٤

(٢) النوادر السلطانية ص ١٨٤

(٣) النوادر السلطانية ص ١٨٤

(٤) النوادر السلطانية ص ١٨٤ ، وانظر منه الكامل في التاريخ ١٢/ ٧٠ وكتاب الروضتين ٤/ ٢٧٥ و ٢٧٦

إنّ هذا مثالٌ لتضحيات المسلمين في قتال الصليبيّين.
ولا ننسى أنّ المسلمين ظلّوا يبذلون النفس والنفيس منذ أن رفع عماد الدين راية الجهاد في سبيل الله تعالى سنة ٥٢٩ هـ. وقد استمرّ الجهاد ستّين عاماً.

وإليك بعض نماذج الصبر، والمصابرة، والمرابطة لبعض الحكّام المسلمين والعامّة.

فض حصار مدينة صور الذي ابتدأ في الثاني والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ٥٨٣ هـ (١) كان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال مثل ولده الأفضل، وولده الظاهر غازي، وأخيه العادل بن أيّوب، وابن أخيه تقيّ الدين، وكذلك سائر الأمراء (٢).

وهذا فرخشاه ابن أخي صلاح الدين يلزم جيشاً كبيراً للفرنج ولم يبلغ عسكر فرخشاه ألف فارس (٣) فقد أرسله صلاح الدين طليعة إلى الفرنج قرب دمشق وذلك في ذي القعدة سنة ٥٧٤ هـ (٤) فخرج بالفرنج، واضطرّ إلى القتال، فاقتتلوا أشدّ قتال رآه الناس. وألقى فرخشاه نفسه عليهم. وغشيتِ الحرب، ولم يكن إلا سواه. فانهزم الفرنج، ونصر المسلمون عليهم، وقتل من مقدميهم جماعة، ومنهم صنفرى، وما أدراك ما صنفرى؟ (٥)

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/ ٥٥٣
(٢) الكامل في التاريخ ١١/ ٥٥٤
(٣) الكامل في التاريخ ١١/ ٥٥٤
(٤) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٥٣
(٥) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٥٣

في سنة ٥٧٩هـ ومن شهر المحرم (١) ملك صلاح الدين مدينة حلب (١) وكان صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي (٢) الذي أعطاه صلاح الدين عدة مدن مقابل أخذ حلب (٣) وكان في جملة من قتل على حلب تاج الملوك بوري، أخو صلاح الدين الأصغر. وكان فارسًا شجاعًا، كريمًا حليمًا، جامعًا لخصال الخير، ومحاسن الأخلاق. طُعن في ركبته فانفكت. فمات منها بعد أن استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين. فلما استقر أمر الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده. وقال له: هذه حلب قد أخذناها. وصرنا لك. فقال: ذلك لو كان وأنا حيّ. ووالله لقد أخذتها غالية حيث تفقد مثلي. فبكى صلاح الدين وأبكى (٤)

ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين تلبيةً لدعوته جاء رسول من أثناء الدعوة إلى صلاح الدين يخبره بموت أخيه، فتجلد، وكتم الأمر، وأمر بتجهيزه سرًا: «واحتمل الحزن وحده ثلاثًا يتنكر ما هم فيه. وكان هذا من الصبر الجميل» (٥)

وفي يوم كسرة الرملة سنة ٥٧٣هـ فاجأ الفرنج صلاح الدين من القليل من جيشه، الذي تفرق أكثره في طلب الغنيمة،

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/٤٩٦
(٢) الكامل في التاريخ ١١/٤٩٦
(٣) الكامل في التاريخ ١١/٤٩٦
(٤) الكامل في التاريخ ١١/٤٩٨
(٥) الكامل في التاريخ ١١/٤٩٨ وعماد الدين زنكي بن مودود صاحب حلب الكامل في التاريخ ١١/٤٩٦

فقاتلهم صلاح الدين بمن معه. وتقدم بين يديه تقي الدين عمر بن محمد ابن أخي صلاح الدين، فباشر القتال بنفسه بين يدي عمه. فقُتل من أصحابه جماعة، وكذلك من الفرنج. وكان لتقي الدين ولد اسمه أحمد، وهو من أحسن الشباب، أول ما تكاملت لحيته. فأمره أبوه بالحملة عليهم، فحمل عليهم وقاتلهم وعاد سالماً قد أثر فيهم أثراً كثيراً، فأمره بالعودة إليهم ثانية، فحمل عليهم فقُتل شهيداً، ومضى حميداً. رحمه الله ورضي عنه (1)

وكان أشد الناس قتالاً ذلك اليوم الفقيه عيسى الهكاري رحمه الله (2) وانسحب صلاح الدين من المعركة فقيل من عسكره. أما الجيش الذي توغل في أرض العدو فقد قُتل أكثره أو أُسر. وكان من جملة من أُسر الفقيه عيسى الهكاري، الذي جمع العلم والدين والشجاعة. وأُسر معه أخوه فقد ضلا الطريق مع جماعة من أصحابهما. وبقوا سنين في الأسر. فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار، وجماعة كثيرة من الأسرى (3)

وقد قُتل العدو بعد الاستيلاء على عكا غدراً ثلاثة آلاف مسلم، وذلك سنة ٥٨٧ هـ (4) وقت العصر السابع والعشرين من

---

(1) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٤٢ وانظر كتاب الروضتين ٢/ ٤٦٣

(2) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٤٢

(3) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٤٣

(4) انظر الكامل في التاريخ ١٢/ ٦٩ و ٧٠ و ٦٠

شهر رجب (١) جاءوا بهم مربوطين في الحبال، وقفوهم، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد، فقتلوهم صبرًا، طعنًا وضربًا بالسيف، رحمة الله عليهم. والحرس الإسلامي الذي بعثه صلاح الدين وقواه يشاهدهم، ولا يعلم ماذا يصنعون لبعده عنهم (٢)

لقد حدثت هذه المجزرة من اليوم السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٨٧ هـ ولا ننسى أن تسلم صلاح الدين القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ (٣)

وفي معركة عكا كانت يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ٥٨٥ هـ (٤) قامت معركة خطيرة بين المسلمين والصليبيين، وقد قتل من الصليبيين نحو سبعة آلاف شخص (٥) وعاد صلاح الدين في ذلك اليوم إلى خيمته فرحًا مسرورًا، وتفقد الشهداء، وكان من الشهداء في ذلك اليوم ظهير الدين، أخو الفقيه عيسى الهكاري. ولقد رآه ابن شداد وهو جالس يضحك، والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول: هذا يوم الهناء لا يوم العزاء (٦)

---

(١) كتاب الروضتين ٤/ ٢٦٨
(٢) كتاب الروضتين ٤/ ٢٦٩
(٣) النوادر السلطانية ص ٨٢ و ٨١
(٤) النوادر السلطانية ص ١٠٩
(٥) النوادر السلطانية ص ١١٢
(٦) النوادر السلطانية ص ١١٢

وفي يوم الأربعاء ١٩/٥/١٥٨٥م في أرض بين صور وصيدا حدثت معركة شرسة بين المسلمين والصليبيين، وقتل من المسلمين مائة وثمانون شهيدا (١) وقتل من الصليبيين عدد كبير، وغرق عدد كبير، وكان ممن قتل منهم مقدم الأمانية. وكان عندهم عظيما محترما (٣)

واستشهد من المعروفين من المسلمين ابن البقار. وكان شابا حسنا شجاعا. واحتسبه والده في سبيل الله، ولم تقطر من عينه عليه دمعة، على ما ذكر جماعة لازموه (٤)

ويعلق ابن شداد على هذه المعركة (٥): "وهذه الوقعة لم يتفق للإفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه العدة في هذه المدة"

هذه بعض النماذج لتضحيات المسلمين في جهادهم في سبيل استرداد القدس الشريف، والمسجد الأقصى، والمقدسات الإسلامية.

---

(١) النوادر السلطانية ٩٩، ٩٨ ص

(٢) النوادر السلطانية ٩٩ ص

(٣) النوادر السلطانية ٩٩ ص

(٤) النوادر السلطانية ٩٩ ص

(٥) النوادر السلطانية ١٠٠ ص

﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ (١)

شاء الله تعالى أن تجتاح الزلازل الشام في سنتي ٥٥١ هـ و ٥٥٢ هـ (٢) ولم تترك مكاناً واحداً في الشام كله (٣) وفي وقتٍ من الأوقات أحصي منها في شهر شعبان سنة ٥٥١ هـ في ناحية حلب وحماة زهاء أربعين زلزالاً (٤) وما عُرف مثل ذلك في السنين الماضية (٥) وفي سنة ٥٥٢ هـ تتابعت الزلازل وورد الأخبار من ناحية الشمال بما يسوء سماعه ويُرعب النفوس ذكره. بحيث انهدمت حماة وقلعتها وسائر دورها ومنازلها على أهلها من الشيوخ والشبان والأطفال والنسوان، وهلك العدد الكثير والجم الوفير، بحيث لم يسلم منهم إلا القليل اليسير (٦) ولولم يدرك العباد الرحمة الله تعالى ولطفه ورأفته لكان الخطب أفظع (٧)

وفي الرابع والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ٥٥٢ (٨) عمت الشام زلازل عنيفة وقالت الأخبار إنها

---

(١) سورة الأنعام / ٦١

(٢) كتاب الروضتين ١/ ٣٣٠

(٣) كتاب الروضتين ١/ ٣٣٠ - ٣٣٤

(٤) كتاب الروضتين ١/ ٣٣١

(٥) كتاب الروضتين ١/ ٣٣١

(٦) كتاب الروضتين ١/ ٣٣٣

(٧) كتاب الروضتين ١/ ٣٣٣

(٨) كتاب الروضتين ١/ ٣٣٤

كانت بحماة أعظم مما كانت في غيرها، وإنها هدمت ما كان معمّر فيها من بيوت يُلتجأ إليها، وإنها دامت فيها أياماً كثيرة. فكل يوم عدّة وافرة من الرجفات الهائلة، يتبعها صيحات مختلفات تُوفي على أصوات الرعود القاصفة المزعجة، فسبحان من له الحكم والأمر(1)

وكان أشد الزلازل سنة ٥٥٥ هـ بمدينة حماة وحصن شيزر (٢) وغيرهما. وقتلت تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى. وتهدمت الأسوار والدور والقلاع (٣)

قال ابن الأثير: ولقد بلغني من كثرة الهلكى أن بعض المعلمين بحماة ذكر أنه فارق المكتب لمهم، فجاءت الزلزلة فأخربت الدور، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم. قال المعلم: فلم يأتِ أحدٌ يسأل عن صبيٍّ كان له في المكتب (٤) قال أبو شامة (٥)

وقرأت في ديوان العرقلة: كان المول صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عُبيد غلام صلاح الدين، في بيتٍ بمدينة حماة يوم الزلزلة، فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذي هما فيه! (٦)

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٣٣٤
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٣٣٥
(٣) كتاب الروضتين ١/ ٣٣٥
(٤) كتاب الروضتين ١/ ٣٣٥
(٥) كتاب الروضتين ١/ ٣٣٩
(٦) كتاب الروضتين ١/ ٣٣٩

وكما نجّى الله تعالى صلاح الدّين من زلازل الشّام بعامّة، حماة بخاصّة، لأمرٍ أراده الله تعالى وقدّره، نجّاه عزّ وجلّ في العديد من المواقف الخطرة. ومن هذه المواقف نجاتُهُ مرّتين اثنتين من محاولة الباطنيّة قتله غدراً (١) وكانت المحاولة الثّانية عند محاصرة صلاح الدّين قلعة إعزاز، وهي أخطر من الأولى (٢)

لقد اتّجه صلاح الدّين عن الثّالث من ذي القعدة سنة ٥٧١ هـ إلى قلعة إعزاز (٣) الّتي لازم حصارها ثمانية وثلاثين يوماً، كلّ يوم أشدّ قتالاً ممّا قبله (٤) ويقال لها أيضاً تمزاز، بفتح العين وتكرار الزّاي (٥) وهي بليدة شماليّ حلب، بينهما يوم (٦)

وفي ليلة الأحد الحادي عشر من ذي القعدة سنة ٥٧١ هـ (٧) وكان صلاح الدّين في خيمة الأمير الأسديّ جاولي (٨) بالقرب من المنجنيقات كعادته كلّ ليلة، يراقبها، ويشجّع الجند، ويحثّ على القتال (٩)

---

(١) هكذا أظهر جيل صلاح الدّين ٩١ وانظر كتاب الرّوضتين ٢/٣٥٠ وحوادث سنة ٥٧٠ هـ

(٢) هكذا أظهر جيل صلاح الدّين ٩١ وكتاب الرّوضتين ٢/٤٠٩ وانظر ٣/٨٣ هامش رقم ١

(٣) الكامل في التّاريخ ١١/٤٣٠

(٤) الكامل من التّاريخ ١١/٤٣٠ وكتاب الرّوضتين ٢/٤١٢

(٥) معجم البلدان: تمزاز ٤/١١٨

(٦) معجم البلدان: تمزاز ٤/١١٨

(٧) كتاب الرّوضتين ٢/٤٠٩

(٨) كتاب الرّوضتين ٢/٤٠٩

(٩) كتاب الرّوضتين ٢/٤٠٩

وكان أهل حلب قد كاتبوا سيفاً صاحب الحشيشية مرّة ثانية، وراسلوه بالأموال، كي يرسل جماعة من أصحابه كي تقتل صلاح الدين، ففعل، وجاءوا بزيّ الجنود، ودخلوا بين المقاتلة، وباشروا الحرب، وأبلوا فيها أحسن البلاء (١) حتى نالوا ثقة الناس. وبينما كان صلاح الدين في خيمة الأمير جاولي الأسدي إذ قفز باطني منهم على صلاح الدين، وضربه بسكينه على رأسه (٢) وكان صلاح الدين يخشى الباطنية، وكان يلبس درعه دائماً، ويجعل الحديد على رأسه، فلم تعمل السكين فيه بفضل الله تعالى فسحبها الباطني على خدّ صلاح الدين الذي سال منه الدم وجرى على وجهه (٣)

ولمّا رأى الباطني ذلك هجم على صلاح الدين، وجذب رأسه حتى وضعه على الأرض وركبه ليذبحه (٤) وكان صلاح الدين أمسك يد الباطني بيده، إلا أنه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية، إنما يضرب ضرباً ضعيفاً (٥) فبقي الباطني يضربه في رقبته بالسكين (٦) وكان على

---

(١) كتاب الروضتين ٢/ ٤١١

(٢) كتاب الروضتين ٢/ ٤١١ والكامل في التاريخ ١١/ ٤٣٠

(٣) كتاب الروضتين ٢/ ٤١١ والكامل في التاريخ ١١/ ٤٣٠

(٤) كتاب الروضتين ٢/ ٤١١

(٥) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٣٠

(٦) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٣٠

صلاح الدين مغفره من الحديد تحت القلنسوة (١) وإن طوق حديد المغفر الذي أحاط بعنق صلاح الدين منع بفضل الله تعالى السكين من أن تصل إلى عنق صلاح الدين، إنما كانت السكين تعمل من الطوق وليس من رقبة صلاح الدين لبُعد أجله (٢)

وهنا اختطف الأمير سيف الدين يازكوج سيفه وضرب به الباطنية فقتله (٣)

وهنا قصد باطنية آخر صلاح الدين، فاعترضه الأمير منكلان الكردي بسيفه فضربه وقتله (٤) وكان الباطنية قد سبق إلى منكلان، فجرحه في جبهته جرحاً بليغاً، فمات بعد أيام (٥)

وهنا قصد باطنية ثالث صلاح الدين. وكان هذا من نصيب علي بن أبي الفوارس. فهجم على الباطنية، ودخل الباطنية فيه ليضربه. فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطنية من ورائه لا يتمكن من ضربه، فصاح علي: اقتلوه واقتلوني معه. فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه، فطعن بطن الباطنية بسيفه. وما زال يخضخضه فيه حتى سقط ميتاً ونجا ابن أبي الفوارس (٦)

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/٤٣٠

(٢) الكامل في التاريخ ١١/٤٣٠

(٣) كتاب الروضتين ٢/٤١١ وانظر الكامل في التاريخ ١١/٤٣٠

(٤) كتاب الروضتين ٢/٤١١

(٥) كتاب الروضتين ٢/٤١١

(٦) كتاب الروضتين ٢/٤١٢

وعند خروج الباطنية، ابتُلي منهزمًا، فلقيه الأمير شهاب الدين محمود، فقال صلاح الدين فتحاشاه الباطنية فقصده أصحابه وقطعوه بالسيوف (١)

وبدأ صلاح الدين يأخذ حِذْرَه، ويضع حوله أكثر من حاجز، وكان يجلس وينام من برج خشبي في وسط تلك الحواجز، ولا يدخل عليه إلا مَنْ يَعْرِفُه (٢)

وهكذا نجّى الله تعالى صلاح الدين من أعدائه الباطنية.

وكذلك نجّى الله تعالى صلاح الدين يوم كَسْرَة الرَّمْلة، يوم الجمعة، غرّة جمادى الآخرة أو ثاني أيام ذلك الشهر (٣) سنة ٥٧٣ هـ (٤) أو أواخر جمادى الأولى (٥)

وسبب الكسرة عدم أخذ المسلمين الحِذْر، وكانوا قد توغّلوا في أرض العدو، وانتشروا، وقتلوا، وأسروا، وعجبوا حينما لم يجدوا للعدو أثرًا. وكان غاب عنهم أن العدو يستدرجهم. وقائد الفرنج أرناط، أكبر عدوٍّ للإسلام والمسلمين (٦) فقد كان قد بيع بحلب (٧) فإنه كان أسيرًا

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٤١٢

(٢) كتاب الروضتين ٢/٤١٢

(٣) كتاب الروضتين ٢/٤٦٢

(٤) كتاب الروضتين ٢/٤٥٦

(٥) الكامل في التاريخ ١١/٤٢٢

(٦) النوادر السلطانية ٥٣

(٧) النوادر السلطانية ٥٣

بها في زمن نور الدين (١) وظل أسيرًا في حلب مدة ستة عشر عامًا (٢)

وقد روى ابن شداد (٣) عن صلاح الدين بأنه انتباطؤ في مجيء الميمنة محل الميسرة والميسرة محل الميمنة احتماءً بتل فباغتهم العدو. ويبدو أن ثمة سببًا آخر ذكره ابن الأثير (٤) وهو عدم أخذ الحذر من العدو، فقد تبعثر الجيش سعيًا وراء الغنائم.

لقد كانت كسرة الرملة مؤلمة جبرها الله تعالى بوقعة حطين المشهورة (٥)

لقد أنقذ الله تعالى بفضله صلاح الدين، ثم بالكوكبة من الفرسان الشجعان الذين كانوا معه، وبعد الهزيمة أنقذه الله تعالى من الضلال في الطريق بفضله عز وجل ثم بالجمالة الذين كانوا معه في تلك المهمة. فبعد الهزيمة بحثوا عنه حتى اهتدوا إليه، ووجدوه، وقادوه، وأرشدوه، وقد بعث منهم سريعًا إلى القاهرة للبشارة بالنصر، وكسر الفرنج، وسلامة صلاح الدين (٦) ومن هذه الرسالة غير المتناسقة الأجزاء يفهم الأريب فحواها البعيد (٧)

---

(١) النوادر السلطانية ص٥٣

(٢) مقدمات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص٥٥

(٣) النوادر السلطانية ص٥٣

(٤) الكامل في التاريخ ١١/ص٤٤

(٥) النوادر السلطانية ص٥٣ وانظر كتاب الروضتين ٢/٤٦٦

(٦) كتاب الروضتين ٢/ ٤٦٥

(٧) كتاب الروضتين ٢/٤٦٥

أمّا الجمّالة فإنّهم الكنانيّة (١) وكان من الكنانيّة طائفة بدمياط وما حولها (٢)

وأمّا الفرسان الشجعان فإنّهم يفدُون صلاح الدّين بأرواحهم. وكان صلاح الدّين قد ثبت ووقف حربًا على عادته (٣) فقصده العدوّ. واتّجه إليه ثلاثة من الفرسان الفرنجة، وصاحوا: واحدٌ منهم قد دنا من صلاح الدّين حصانُه، وصوّب نحو نحر صلاح الدّين سِنانَه. فقتضى الله تعالى ثلاثة من الفرسان الشجعان المسلمين، فقتل كلّ فارس من المسلمين فارسًا صليبيًّا.

الفارس الصليبيّ الأوّل قتله الفارس المسلم إبراهيم بن قَتَادر.

والفارس الصليبيّ الثّاني قتله الفارس المسلم فضل القَفْصِيّ.

والفارس الصليبيّ الثالث قتله الفارس المسلم سُوَيْدبن غَشْم المِصْريّ (٤)

وكان من أشدّ النّاس قتالًا ذلك اليوم الملك المظفّر تقيّ الدّين (٥) ابن أخي صلاح الدّين (٦) الذي تلقّاهم بصدره، وباشرهم ببيضته وسُمْره. فاستُشْهِد من أصحابه عدّةٌ من الكرام، انتقلوا إلى نعيم دار المقام. وهلك من الفرنج أضعافهم (٧)

---

(١) كتاب الروضتين ٢ / ٤٦٤

(٢) كتاب الروضتين ٢ / ٤٦٤ هامش رقم ٥

(٣) كتاب الروضتين ٢ / ٤٦٣

(٤) كتاب الروضتين ٢ / ٤٦٣

(٥) كتاب الروضتين ٢ / ٤٦٢

(٦) الكامل في التاريخ ١١ / ٤٤٢

(٧) كتاب الروضتين ٢ / ٤٦٢

وقد أمر تقيّ الدّين ولده الشّابّ أحمد بمباشرة القتال ففعل وأبلى بلاءً حسنًا وآذى العدوّ أذىً بليغًا وعاد فأمره والده بمعاودة الكرّة ففعل ومن هذه المرّة استشهد مع كوكبة من الأبطال رحمهم الله تعالى رحمةً واسعةً وأسكنهم فسيح جنّاته آمين (١)

ولو أنّ لتقيّ الدّين رِدْءًا لأزرى القوم، لكن النّاس تفرّقوا (٢)

وكان من أشدّ النّاس فتكًا ذئب اليوم الفقيه عيسى الهكّاري (٣) وهو من أعيان الأسديّة. وكان جمع العلم والدّين والشّجاعة (٤)

وإنّ العسكر الّذين دخلوا بلاد الفرنج في الغارة أصيب أكثرهم ما بين قتيل وأسير. ومن جملة من أُسِر الفقيه عيسى وأخوه الظّهير، اللّذان ضلّا الطّريق، وبقيا مع غيرهما سنين من الأسر، فافتدى صلاح الدّين الجميع بستّين ألف دينار (٥)

ويقول ابن الأثير (٦): «ووصل صلاح الدّين إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة. ورأيت كتابًا كتبه صلاح الدّين

---

(١) الكامل في التّاريخ ١١/ ٤٤٢
(٢) كتاب الرّوضتين ٢/ ٤٦٣
(٣) الكامل في التّاريخ ١١/ ٤٤٣
(٤) الكامل في التّاريخ ١١/ ٤٤٣
(٥) الكامل في التّاريخ ١١/ ٤٤٣
(٦) الكامل في التّاريخ ١١/ ٤٤٣

بخطّ يده إلى أخيه شمس الدّولة توران شاه وهو بدمشق يذكر الوقعة. ومن أوّله:

ذَكَرْتُكَ والخَطّيُّ يخطِرُ بيْنَنا .. وقد نَهِلَتْ مِنّا المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

ويقول فيه: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرّة، وما أنجانا الله سبحانه منه إلّا لأمر يريده سبحانه:

وما ثبتَتْ إلّا وفي نفسِها أمْرُ"

أرناط يؤذي المسلمين:

أرناط أمير صليبي اشتهر بالغدر والخيانة وعدم احترام المواثيق. وصفه أبو شامة بأنه أغدر الفرنجة وأخبثهم وأفحشهم من الرأي والرواية، وأكثرهم وأنقضهم للمواثيق المحكمة، والأيمان المبرمة، وأنكثهم، وأحنثهم (١)

في سنة ٥٥٦هـ = ١١٦٠م نصب نائب نور الدين في حلب مجد الدين بن الداية كميناً لريجنالد شاتيون (أرناط) صاحب أنطاكية، وهو في طريق عودته من غارته التي قام بها ضد المسلمين التركمان في عين تاب (٢) ومرعش (٣) وذلوك (٤) فوقع أرناط في أسر ابن الداية، وحمله إلى حلب، حيث ظل أسيراً بها ستة عشر عاماً (٥) وكان قد بيع بحلب (٦)

وكان أرناط قائد الفرنج يوم كسرة الرملة سنة ٥٧٣هـ (٧)

---

(١) انظر كتاب الروضتين ٣/٢٧٤ ومقدمات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص٥٥ هامش ١ والكامل في التاريخ ١١/٥٢٧ ص٥٥

(٢) عين تاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية. وكانت تعرف بذلوك. وذلوك رستاق من أعمال حلب. معجم البلدان

(٣) مرعش، بالفتح ثم السكون والعين مهملة مفتوحة وشين معجمة: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم. معجم البلدان.

(٤) ذلوك، بضم أوله وآخره كاف: بليدة قرب حلب. معجم البلدان

(٥) مقدمات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص٥٥ وانظر النوادر السلطانية ص٥٣

(٦) النوادر السلطانية ص٥٣

(٧) النوادر السلطانية ص٥٣

وقد أسند له رباط العديد من المناصب.

في سنة ٥٧٨هـ عمل البرنس أرناط صاحب الكرك أسطولاً، وفرغ منه بالكرك، ولم يبق إلا جمع وقطعه بعضها إلى بعض، وحملها إلى بحر أيلة (١) وجمعها في أسرع وقت (٢) وجعل الأسطول قسمين اثنين. القسم الأول متسح الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وآذى المسلمين، وقطع طرق التجارة، وسرق ونهب وسبى وقتل. وقد تعرض من البحر للحجاج والمعتمرين، وآذاهم أذى بليغاً، وفعل بهم ما فعل بالآخرين من سوء (٣)

وكانت النية متجهة لقطع طريق الحجاج والمعتمرين تماماً. بل كان الهدف الأبعد والأخطر إيذاء أهل مكة المكرمة، والمدينة المنورة حرسهما الله تعالى، وإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم في قبره (٤)

أما القسم الثاني من الأسطول فإنه اتجه إلى ميناء عيذاب، في شاطئ مصر وساحل البحر الأحمر الغربي. لقد فعل هذا القسم من الأسطول الأذى الذي فعله القسم الأول. لقد فوجئ أهل عيذاب والمدن الساحلية الأخرى بهذا البلاء، إذ: "فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً قط، لا تاجراً ولا محارباً" (٥)

---

(١) بحر أيلة: البحر الأحمر.

(٢) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٩٠ وكتاب الروضتين ٣/ ١٣٤

(٣) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٩٠ وكتاب الروضتين ٣/ ١٤٠

(٤) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٩٠ وكتاب الروضتين ٣/ ١٣٨ و ١٣٩

(٥) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٩٠

وبعد أن أوصل هذا القسم من الأسطول العذاب إلى أهل عَيْذاب والمدن الساحليّة الأخرى، عاث في البحر الأحمر فسادا (١)

وكان بمصر الملك العادل أبوبكر بن أيّوب ينوب عن أخيه صلاح الدّين. فعَمِلَ على الفور أسطولاً بحريًّا ضخمًا. وشَحَنَه بالمجاهدين المسلمين، وقائدهم حسام الدّين لؤلؤ، وهو متولّ الأسطول بديار مصر. وكان مظفّرًا فيه، شجاعًا، كريمًا (٢) سار لؤلؤ مجدّاً من طلبهم. فابتدأ بالذين على أَيْلَة فانتقم عليهم انتقاما من العُقاب على صنيعهم، فقاتلهم، فقتل الباقي (٣) وبذلك غدا أسطول أَيْلَة خبرًا بعد عين.

وبعد القضاء على أسطول أَيْلَة، اندفع لؤلؤ بأسطوله إلى القسم الآخر من الأسطول الفرنجي في بحر عيذاب. فلم يجده. حيث إنّه بعد أن عاث في عيذاب فسادًا وفي المدن الساحليّة الأخرى، ساح في البحر الأحمر فسادا. فقتلوا، وأسروا، وقطعوا الطريق، ونهبوا، وفعلوا كلّ ما استطاعوا من سوء (٤)

أخذ لؤلؤ يفتّش عن الأسطول الفرنجي في البحر الأحمر فلم يجده، فاتّجه غربًا حتّى بلغ مدينة رابغ وما جاورها وصادف اصطادهم. وفعل بهم لؤلؤ ما فعل بالقسم الأوّل.

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٩٠

(٢) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٩٠ انظر هذا كتاب ١/٣ ومنتين ٤/ ٤٦٦، ٣/ ١٣٣

(٣) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٩٠ وكتاب ١/٣ ومنتين ٣/ ١٣٤

(٤) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٩٠

حينما أُسقط من أيدي الصليبيين في البحر، فرّ الأحياء إلى البرّ. فطاردهم لؤلؤ ورجاله في البر، وقاتلهم فرساناً وترجالة، فقتل أكثرهم، وأسر بقيتهم، وبعث ببعض الأسرى إلى منى حيث نحروا في منىً عقاباً ونكالاً لمن آذى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم الذين استهزءوا به، وسخروا منه. وعاد بباقي الأسرى إلى مصر حيث نحروا صنائك (١) بأمر السلطان صلاح الدين (٢)

وبفضل الله تعالى تمّ انتصار أسطول حسام الدين لؤلؤ على الأسطول الفرنجي في شهر شوّال سنة ٥٧٨هـ (٣)

وقد كتب صلاح الدين في هذا الفتح المبين بحراً ثلاثة كتب لأخيه الملك العادل مهنئاً، وحاثاً على المجاهدين بقيادة الحاجب لؤلؤ (٤)

كما كتب صلاح الدين في هذا المعنى كتابين للخليفة في بغداد (٥)

وقد أكثر الشعراء من مدح حسام الدين لؤلؤ وجنوده (٦)

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/٤٩١ وكتاب الروضتين ٣/١٣٤ - ١٣٦

(٢) كتاب الروضتين ٣/١٣٧

(٣) كتاب الروضتين ٣/١٣٣

(٤) كتاب الروضتين ٣/١٣٦ و١٣٧

(٥) كتاب الروضتين ٣/١٣٨ و١٣٩

(٦) كتاب الروضتين ٣/١٣٥ و١٣٦ و٤/٤٦٦

وقد نسأ الله تعالى للحاجب حسام الدين لؤلؤ في الأجل، وبارك له في العمل، ووفقه لاستباق الخيرات. ذكر العماد أنه رآه بالقاهرة سنة ٥٩١هـ مكرمة لهذا الرجل الفاضل. فقد مشت القاهرة مجاعة. وكان حسام الدين لؤلؤ يعمل ليلياً اثني عشر ألف رغيف. وفي الصباح يقوم بنفسه بتوزيع هذه الأرغفة على اثني عشر ألف فقير، حتى كشف الله تعالى الغمة عن عباده (١)

وقد أصبح لأرناط حصن الكرك، وهو من أعظم الفرنج، وأخبثهم، وأشدهم عداوة للمسلمين، وأعظمهم ضرراً عليهم. فحاصره صلاح الدين مرة بعد مرة فذل وخضع. وطلب الصلح من صلاح الدين فلبى طلبه، وصادنه، وتحالفا. وترددت القوافل بين الشام ومصر بأمان (٢)

وفي سنة ٥٨٢هـ (٣) غدر الناس كعادته، ونقض الهدنة. وذلك أن قافلة عظيمة مرت به، فطمع فيها، وهاجمها، وقتل، وأسر، وسرق، وأودع بقية الأسرى السجون (٤) فكتب إليه صلاح الدين، يوبخه، ويقبح غدره، ويتهدده إن لم يطلق الأسرى. فلم يستجب أرناط، وأصر على الامتناع فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن

---

(١) كتاب الروضتين ٤/٤٦٧

(٢) الكامل في التاريخ ١١/٥٢٧

(٣) الكامل ١١/٥٢٨

(٤) الكامل ١١/٥٢٨

ظفر به. وقد مكّن الله تعالى صلاح الدّين من الوفاء بنذره يوم معركة حطّين (١) وذلك في السّنة التّالية سنة ٥٨٣هـ (٢)

وقبل أن ينقضّ أرناط العهد، ويغدر بالقافلة، كان يأخذ المكوس من القوافل المارّة، المذاهبة والآيبة. (٣)

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/٥٢٨ والنوادر السلطانية ٧٩

(٢) النوادر السلطانية ٧٥ وكتاب الروضتين ٣/٢٧٤

(٣) كتاب الروضتين ٣/٢٧٤

الاستعداد لمعركة حطين:

معركة حطين هي إحدى المعارك الخالدة الفاصلة في تاريخ الإسلام والمسلمين. وهي معركة تذكر بالمعارك الخالدة الفاصلة في فجر الإسلام. وليس لمعركة حطين نظير بعدها.

وقد وفق الله تعالى السلطان صلاح الدين الأيوبي فوظف كل النعم التي منّ الله تعالى بها أحسن توظيف، بعد الاعتماد على الله تعالى وحده لا شريك له أولاً وآخراً، فمنّ الله تعالى عليه وعلى المسلمين، بالنصر العزيز، والفتح المبين. ومن أهم هذه النعم التي وفق الله تعالى صلاح الدين فوظفها أحسن توظيف ما يلي:

١- علاقة صلاح الدين الطيبة بالخليفة العباسي في بغداد. فالخليفة العباسي رمز الأمة الإسلامية، والمذهب السني. وقد عرفنا أن صلاح الدين وحد المذهب في مصر، فهو المذهب السني، وأن نور الدين زنكي وحد قبله في الشام المذهب. لقد كان صلاح الدين يطلع الخليفة العباسي على كل خطوة يخطوها، وكان الخليفة العباسي يأمن جانب صلاح الدين، كما كان الخليفة عموماً يأمن من قبل جانب نور الدين زنكي، وجانب والده عماد الدين زنكي. وكان الخليفة العباسي يلبي دائماً وأبداً طلبات صلاح الدين الأيوبي، بشأن ما ملكت يداه، بأن يقره الخليفة حاكماً على كل ما اشتملت عليه دولته.

وحينما فكر صلاح الدين في حرب الصليبيين كافة في طريقه إلى القدس الشريف، أيده الخليفة العباسي تأييداً

مطلقاً. وبالإضافة إلى التأييد المعنوي أعانه مادّياً في حدود طاقة الخليفة العباسي المحدودة.

٢- مكّن الله سبحانه وتعالى لدولة صلاح الدّين في الأرض، فها هي ذي تشمل العراق، والهلال الخصيب في العراق والشام، ومصر، حتّى برقة غرباً، والنّوبة جميعاً، وحتّى اليمن السّعيد. إضافةً إلى ديار بكر.

وإنّ صلاح الدّين مكّن الولاية في آل بيته وأوليائه. وكلّ الذي يهتمّ له صلاح الدّين استعداد كلّ والٍ بجيشه أو كتيبته، للمشاركة في جهاد الصّليبيّين. وهذا شرطٌ لا يتساهل فيه صلاح الدّين مطلقاً.

وهذا الشّرط يُطلَبُ من كلّ الحُكّام خارج دولته شرقاً بأن يلتزموه، فليس يُريدُ صلاح الدّين توسيع دائرة مُلكه على حساب الآخرين. إنّما يريد منهم الإسهام في جهاد أعداء الله تعالى، أعداء الإسلام.

ومن العجائب الأصفهانيّ أنّه وقف على ثلاثة كُتُب تتقاضى انفاضل عن الملك العادل إلى الولاة بأن يعلموهم أنّ ملوك الشّرق قد دخلوا في طاعة السّلطان (١)

إنّ كلّ الذي يريده السّلطان صلاح الدّين الأيّوبيّ من أولئك الملوك، ومن كلّ الملوك الذين يعيّنهم من أوليائه، والذين يعيد إليهم صلاح الدّين ممالكهم أو ممتلكاتهم أن يُشهِموا إسهاماً حقيقيّاً في الجهاد.

---

(١) كتاب الروضتين ٣/٦٨

ومن فضل الله تعالى على صلاح الدين أن كل ملوك الإسلام استجابوا له، فقد تأولوا فيه مثال الملك المسلم الذي يجاهد في سبيل الله تعالى حق الجهاد، ولا تأخذه في الجهاد لومة لائم. ولم نسمع أن واحداً من الملوك أو الولاة طعن صلاح الدين من ظهره في أثناء جهاده في سبيل الله تعالى.

٣- من مطلع عام ٥٨٣هـ أرسل صلاح الدين الأيوبي إلى كل الملوك والولاة المسلمين بعزمه بإذن الله تعالى على الدخول مع الصليبيين في حرب شاملة حاسمة. وطلب منهم جميعاً الإسهام الفعلي في الجهاد.

٤- عمل صلاح الدين جاهداً على استدراج الصليبيين إلى البر بعيداً عن البحر الذي يحمي منه الدعم الدائم للصليبيين، والذي يجيد الصليبيون القتال فيه بأكثر من إجادتهم القتال في البر. ومن أجل حمل الصليبيين الخائفين منه، والذين كانوا يتقبعون في حصونهم على الخروج إلى صلاح الدين في المكان والزمان المناسبين، هاجم صلاح الدين قلعة الكرك حصناً منيعاً، كي يخرج إليه أرباط أكبر الصليبيين عداوة للإسلام والمسلمين، من البحر الذي يختبئ فيه في قلعة الكرك. كما أمر صلاح الدين ولده الملك الأفضل الذي ينتظر الجيوش الإسلامية في دمشق (١) كي تجتمع عنده، أمره أن يرسل كتيبة إلى عكا كي تقاتل

---

(١) أبقى صلاح الدين ولده الملك الأفضل في رأس الماء قرب دمشق كي تأتي إليه الجيوش الإسلامية. الكامل في التاريخ ١١/٥٢٩ وكتاب الروضتين ٣/٢٧٦

الصليبيين المجتمعين في عكا، كي يخرجهم من حصنهم في عكا لقتالهم. كما أن صلاح الدين فعل الشيء نفسه حينما ترك مرناط تابعاً في خروجه من قلعة الكرك وانطلق إلى طبرية فتحها (١) عمل صلاح الدين كل ذلك من أجل حمل الصليبيين القابعين في عكا، الخائفين منه على الخروج والمجيء إليه لقتالهم.

عمل الملك الأفضل بما أمره به والده فأرسل كتيبة صالحة كي تقاتل الصليبيين في عكا. كان من قواد تلك الكتيبة بعض أكابر الأمراء المسلمين، والقواد العظماء، منهم مظفر الدين كوكبري بن زين الدين، وصوصاحب حران والرها، وقايماز النجمي، وديدرم اليازوقي، وهما من أكابر الأمراء، وغيرهم من أكابر الأمراء والقواد والشجعان (٢)

انطلقت الكتيبة الإسلامية، وسارت ليلاً، وصبحت صفورية (٣) آخر صفر سنة ٥٨٣ هـ فخرج إليهم الفرنج في جمع من الصليبيين من أهم فرقتين هما الداوية (٤)

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/ ٥٣٢ وكذلك حاجم صلاح الدين الشوبك كتاب الروضتين ٣/ ٢٧٦ و ٢٧٧

(٢) الكامل في التاريخ ١١/ ٥٣٠ وكتاب الروضتين ٣/ ٢٧٦

(٣) صفورية، بفتح أوله، وتشديد ثانيه، وواو وراء مهملة، ثم ياء مخففة: بلدة قرب طبرية. معجم البلدان.

(٤) الداوية: فرقة قتالية من الرهبان أنشأها الصليبيون لتعويض النقص بذهاب الجيل الأول من الصليبيين المتحمسين. وهم فرسان معبد سيدنا سليمان ويسمون كذلك طائفة التمبلان أو فرسان المعبد. ويسمي العرب هذه الطائفة الداوية. انظر صلاح الدين لأيوبي لأبي حديد ص ١٢١ حاشية رقم ١

و الإسبتارية (١) وغيرهما (٢) فالتقوا هناك، وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السعود (٣)

والحقيقة أن معركة صفورية صورة مصغرة لمعركة حطين بعد ذلك، كما أن انتصار المسلمين في معركة صفورية صورة مصغرة لانتصار المسلمين في معركة حطين، وذلك لأهمية معركة صفورية، وخطورتها، ودورها الإيجابي بتحويل مجرى الحروب الصليبية لمصلحة المسلمين.

وإليك ما يقول ابن الأثير (٤) بشأن معركة صفورية: «ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الفرنج، وقتل منهم جماعة، وأسر الباقون، وفيمن قتل مقدم الإسبتارية، وكان من فرسان الفرنج المشهورين، وله النكايات العظيمة في المسلمين. ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد، وغنموا وسبوا، وعادوا سالمين. وكان عودهم على طبرية، وبها القمص (٥) فلم ينكر ذلك. فكان فتحاً كبيراً، فإن الداوية والإسبتارية هم جمرة الفرنج. وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك»

---

(١) الإسبتارية أو فرقة القديس يوحنا. ويسميهم العرب الإسبتارية نسبة إلى مستشفى بناه تجار إيطاليون ونسبوه إلى القديس يوحنا تبركا. وكان رهبان الطائفتين من أكبر المدافعين في الشام عن المسيحيين مدة قرن تقريبا. صلاح الدين الأيوبي أبو حديد ص ٢١١ هامش ١.

(٢) الكامل في التاريخ ١١ / ٥٣٠

(٣) الكامل في التاريخ ١١ / ٥٣١ وكتاب الروضتين ٣ / ٢٧٧

(٤) الكامل في التاريخ / ١١ / ٥٣١

(٥) قمص طرابلس. ويقال كذلك "القومص".

٥ - لمّا أتت صلاح الدّين البشارة بهزيمة الإسبتارية والدّاوية، وقتل من قُتل منهم، وأسْر من أُسِر، عاد عن الكَرَك إلى العسكر الّذي مع ولده الملك الأفضل (١) عند رأس الماء قرب دمشق (٢) وقد تلاحقت سائر الأمداد والعساكر، واجتمع بهم. وساروا جميعًا، وعَرَضَ العسكر، فبلغت عدّتهم اثني عشر ألف فارس ممّن له إقطاع والجامكيّة (٣) سوى المتطوّعة. فجعل عسكره قلبًا، وجناحَيْن، وميمنةً وميسرةً، وجالشيّة وساقة. وعرّف كلّ منهم موضعه وموقفه، وأمره بملازمته، وسار على تعبئة (٤)

نزل صلاح الدّين بالأُقحوانة (٥) بقرب طبريّة (٦)

٦ - وقف صلاح الدّين الأيوبيّ لصالحه وصالح الإسلام والمسلمين أضخم انشقاق حدث بين الصّليبيّين، وذلك في صورة انشقاق قُمّص طرابلس على الصّليبيّين وانضمامه إلى صلاح الدّين (٧) واسم القُمّص ريموند بن ريموند

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/ ٥٣١

(٢) الكامل في التاريخ ١١/ ٥٢٩

(٣) الجامكيّة: الوظائف الرّسميّة.

(٤) الكامل في التاريخ ١١/ ٥٣١

(٥) الأُقحوانة: بالضّمّ ثمّ السّكون وضمّ الحاء المهملة وواو وألف ونون وهاء: موضع على شاطئ بحيرة طبريّة. معجم البلدان

(٦) الكامل في التاريخ ١١/ ٥٣١

(٧) الكامل في التاريخ ١١/ ٥٢٦ ويقال: القومص.

الصنجيلي (١)

وسبب الخلاف بين القمص وقومه الصليبيين أن القمص تزوج بالقومصة صاحبة طبرية وانتقل إليها، وأقام عندها بطبرية. ومات ملك الفرنج بالشام، وأوصى بالملك إلى ابن أخت له، وكان صغيرًا، فكفله القمص، وطمع من الزواج بالملكة (٢) فقام القمص: «بسياسة الملك وتدبيره لأنه لم يكن للفرنج ذلك الوقت أكبر منه شأنًا، ولا أشجع ولا أجود رأيًا منه، فطمع من الملك بسبب هذا الصغير فاتفق أن الصغير توفي، فانتقل الملك إلى أمه، فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به» (٣) فطمع من الملك عن طريق الملكة. ولكن الملكة هويت رجلا من الفرنج الذين قدموا الشام من الغرب اسمه كي فتزوجته، ونقلت الملك إليه، وجعلت التاج على رأسه (٤) وأشهدت على ذلك (٥) وكي هذا هو جي دي لوسنيان (٦) لقد كان كي من أجمل الناس ظاهرًا وأدنئهم حقيقة، حتى إن أخاه قال مرة: إذا كان هذا ملكًا فما أجدر بي أن أكون إلهًا (٧)

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/٥٢٦

(٢) الكامل في التاريخ ١١/٥٢٦ وانظر صلاح الدين الأيوبي لأبي حديد ص ١٤٥

(٣) الكامل في التاريخ ١١/٥٢٦

(٤) صلاح الدين الأيوبي لأبي حديد ص ١٤٦

(٥) الكامل في التاريخ ١١/٥٢٧

(٦) صلاح الدين الأيوبي لأبي حديد ١٤٦

(٧) صلاح الدين الأيوبي لأبي حديد ١٤٦

حوسب القُمّص، وطُلب منه كشف حسابات نفقاته على الصّبيّ، فادّعى أنّه أنفق كلّ الأموال على الصّبيّ مدّة الولاية عليه. فاتّسعت الهوّة، وجاهر بالعداوة، وكاتب صلاح الدّين، الّذي رحّب به، ووعده النّصرة، والعمل على جعله ملكاً على كلّ الفرنج. وأطلق صلاح الدّين أسرى القُمّص الّذين كانوا لديه، فقويت الأُلفة بين القُمّص وبين صلاح الدّين. وكان هذا الشّرخ بين الصّليبيّين من أعظم الفضل من الله تعالى على المسلمين، ومن أهمّ أسباب الانتصار على الصّليبيّين في حِطّين وما بعد حِطّين (١)

٧. عقد صلاح الدّين مجلس الشّورى لتدارس الحال: "فأشار أكثرهم عليه بترك اللّقاء، وأن يُضعِّف الفرنج بشنّ الغارات، وإخراب الولايات مرّة بعد مرّة" (٢) وكان لصلاح الدّين رأيٌ آخر. وها هو ذا يقول لمجلس شوراه: "الرّأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفّار. فإنّ الأمور لا تجري بحكم الإنسان. ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا. ولا ينبغي أن نفرّق هذا الجمع إلّا بعد الجدّ بالجهاد" (٣)

لقد أدرك صلاح الدّين فضل الله تعالى عليه وعلى المسلمين

---

(١) الكامل في التّاريخ ١١/٥٢٧

(٢) الكامل في التّاريخ ١١/٥٢٧

(٣) الكامل في التّاريخ ١١/٥٢٧

باجتماع هذا الجيش الكبير لديه، وائتمارهم بأمره. إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي ساق هذا الفضل إليه فينبغي عليه أن يراقب الله تعالى فيه، وأن يوظّفه أحسن توظيف. وهذا الّذي كان بفضل من الله تعالى ونعمة، فإنّ مجلس الشّورى وافق على رأي صلاح الدّين. وقد مضى وقت الشّورى، وبدأ وقت العزم والتّنفيذ(١)

وكما عقد صلاح الدّين مجلسه، عقد الصّليبيّون مجلسهم، بعد أن استولى صلاح الدّين على طبريّة (٢)

ابتدأ الصّليبيّون بدعوة قمّص الّذي انشقّ عليهم، فرفضوه أكبر تهديد، فخاف، وتاب، وأناب، "وطلبوا منه الموافقة على المسلمين، والمؤازرة على حفظ بلادهم، فأجابهم إلى المصالحة، والانضمام إليهم، والاجتماع معهم. وسار معهم إلى ملك الفرنج، واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم، ولم تغن عنهم من الله شيئاً. وجمعوا فارسهم وراجلهم. ثمّ ساروا من عكّا إلى صفّوريّة، وهم يقدّمون رجلاً ويؤخّرون أخرى. وقد ملئت قلوبهم رُعباً"(٣)

عقد الصّليبيّون مجلس الشّورى. والتقى فيه قمّص طرابلس وأرناط. وتمّت بينهما مناقشة حامية. وممّا قال القمّص في المجلس (٤): "إنّ طبريّة لي ولزوجتي. وقد فعل

---

(١) الكامل في التّاريخ ١١/ ٥٣٢ و ٥٣٣ وانظر النّوادر السّلطانيّة ٧٥ ص

(٢) الكامل في التّاريخ ١١/ ٥٣٣

(٣) الكامل في التّاريخ ١١/ ٥٣٢ وكتاب الرّوضتين ٣/ ٢٧٨

(٤) الكامل في التّاريخ ١١/ ٥٣٣

صلاح الدين بالمدينة ما فعل. وبقي القلعة. وفيها زوجتي. وقد رتبت أن يأخذ القلعة وزوجتي وما لنا بها ويعود. فقال: والله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة.

ومما قاله أرناط صاحب الكرك للقمص (١): «لقد أطلت من التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم، وتميل إليهم، وإلا ما كنت تقول هذا».

فقال القمص (٢): «أنا واحد منكم، إن تقدمتم تقدمت، وإن تأخرتم تأخرت، وسترون ما يكون».

اتجه الصليبيون إلى المسلمين، وذلك الذي أراده صلاح الدين. لقد اقتربوا من عسكر الإسلام، وترك صلاح طبريّة إلى عسكره، وكان قريباً منه. وكان جيش صلاح الدين على تعبئة. وأكثر المسلمون من التهليل والتكبير طول ليلتهم، وفرق صلاح الدين الرماة، وزوّدهم بالسهام (٣).

٨- كان صلاح الدين حريصاً على أن يلتقي بالصليبيين أيام الجمعة، وأن يدور القتال، ويحمي الوطيس في الوقت الذي يرقى الخطباء المنابر. وكان صلاح الدين حريصاً على أن يعلم الخطباء من كل الجوامع القريبة

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/٥٣٣

(٢) الكامل في التاريخ ١١/٥٣٣

(٣) الكامل في التاريخ ١١/٥٣٤ وانظرنا الروضتين ٣/٢٧٩

و الممكنة لها أن تصل إليها المعلومات، كي ينتفع بإذن الله تعالى من دعاء الخطباء على المنابر، وتأمين الحاضرين من المصلّين (١)

إنّ هذا ما فعله صلاح الدّين في معركة حطّين، الّتي حمي وطيسها يوم الجمعة، وتمّ فيها هزيمة أحد جانبي جيش الأعداء. وفي اليوم التّالي، يوم السّبت، تمّ بفضل الله تعالى النّصر العزيز، والفتح المبين (٢)

لقد عرفنا عدد جيشنا صلاح الدّين الأيّوبي من المجاهدين في سبيل الله تعالى. وكان عدد الفرنج ثلاثة وستّين ألفًا بين فارس وراجل. لقد قُتِل من الفرنج ثلاثون ألفًا، وأُسِر منهم ثلاثون ألفًا (٣)

وما سلم من عسكر الفرنج سوى قومص طرابلس، مع أربعة نفر، وهو مجروح ثلاث جراحات (٤)

---

(١) النّوادر السّلطانيّة ص ٧٥

(٢) النّوادر السّلطانيّة ص ٧٧

(٣) كتاب الرّوضتين ٣/٩٩

(٤) كتاب الرّوضتين ٩٩/٣

معركة حطين:

اتجه صلاح الدين بالجيش الذي أكرمه الله تعالى به والذي أطاعه، إلى العدو في وسط نهار الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ في وسط نهار الجمعة (١) وكان أبدًا يقصد بوقعاته الجُمَع، لا سيما أوقات صلاة الجمعة، تبركًا بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة (٢) وكان قد سار على تعبئة (٣) فكل فرد من الجيش يعرف موضعه فيه، وكأن الحرب بعد لحظة واحدة تقوم.

علم العدو أن صلاح الدين قد جمع عساكره فاتجه بكل عسكره إلى مرج صفورية بأرض عكا (٤) فانطلق صلاح من فوره إلى بحيرة طبرية عند قرية الصَّنَّبْرة (٥) بكسر الصاد، وفتح النون المشددة، وسكون الباء الموحدة، وراءه موضع على بعد ثلاثة أميال من طبرية (٦) ثم رحل من صناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبئة الحرب، منتظرًا أن الإفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من منزلهم (٧)

---

(١) النوادر السلطانية ص ٧٥

(٢) النوادر السلطانية ص ٧٥

(٣) النوادر السلطانية ص ٧٥

(٤) النوادر السلطانية ص ٧٥

(٥) النوادر السلطانية ص ٧٥

(٦) معجم البلدان.

(٧) النوادر السلطانية ص ٧٦

كان نزول صلاح الدين غربي طبرية يوم الأربعاء الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ وحينما رأى صلاح الدين الإفرنج لا يتحركون، أبقى الجيش في موضعه على تعبئته، وانطلق هو على رأس كتيبة إلى طبرية، فاحتلها في ساعة من نهار سوى القلعة، وامتدت الأيدي إلى المدينة بالنهب، والأسر، والحرق، والقتل (١)

أخذت الإفرنج الحمية، فانطلقوا بجيوشهم إلى طبرية بقصد الدفاع عنها. علم صلاح الدين بانطلاق الإفرنج، واندفاعهم إلى طبرية، فاندفع بكتيبته إلى جيشه، وترك حامية على قلعة طبرية، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في أواخر الخميس، الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (٢) وأقبل الظلام، وحال الليل بين الفئتين، وتوقف القتال، وبات كل من الفريقين في سلاحه أمام الآخر، إلى صبيحة الجمعة الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (٣)

وفي صبيحة يوم الجمعة، وبعد أداء المسلمين صلاة الفجر، وبزوغ الفجر المستطير، ووضوح الرؤية، استأنف الفريقان القتال، فأرسل الفريقان السهام كالجراد، وقتل المسلمون من خيل العدو الكثير، واصطدم الفارس بالفارس، والراجل بالراجل، وعملت السيوف والرماح، وفجر الإسلام في المسلمين الشجاعة

---

(١) النوادر السلطانية ٧٦ وكتاب الروضتين ٣/ ٢٨٠

(٢) النوادر السلطانية ٧٦ وكتاب الروضتين ٣/ ٢٨٠ و٢٨١

(٣) النوادر السلطانية ٧٦ وانظر كتاب الروضتين ٣/ ٢٨٠

الإسلاميّة، وفجّر الإيمان في المؤمنين الحميّة الإيمانيّة، ودعت الشّهادة طلّابها، والجنّة أصحابها. وأيقن المسلمون أنّ العدوّ أمامهم، والصّحارى خلفهم، وليس لهم سوى التّضرّع إلى الله تعالى بطلب النّصر، ثمّ بإجادة الكرّ والفرّ (١) وبفضل الله تعالى ظهرت العزّة الإسلاميّة في المعركة، والحرص على الشّهادة من كلّ جند الله تعالى، فاستماتوا في القتال، وأيقن العدوّ أنّه قد حلّ به الوبال، ولكن عليه أن يواصل القتال، مهما يكن الثّمن غاليًا. ولكنّ البطولة الإيمانيّة أرغمته على التّقهقر، والشّهامة الإسلاميّة أرغمته على التّراجع. وها هي ذي السّيوف تنثر، والرّمح تنظم، والقسيّ تحنّ وتئنّ، والسّهام تعرف طريقها إلى ثغرة النّحر، وتُدرِك قصدها في مَفرِق الشّعر، فكيف والخيل مصفوفة، والفرسان مرصوفة، والرّجال سائرة، والمشاة مائرة، وقد فرّق صلاح الدّين من السّهام أربع مئة حِمْل، وأوقف من حَوْمة الوغى سبعين عربة، تشبه العجلة الّتي تجرّها الخيل، يأخذ منها السّهام مَنْ خلّت جعابُه، وينال منها النّبال من فرغ نُشّابُه (٢) وكان جيش المسلمين أمام جيش الإفرنج كالسّدّ، وكان نظامهم إذا أرادوا إمامه طريقة الصّدّ والطّرد، وقد فطن السّلطان لقصدهم، فحال بالجيش بينهم وبين الورد (٣) وكان نصيبهم السّيف

---

(١) النّوادر السّلطانيّة ٦٧

(٢) كتاب الرّوضتين ٣/٢٨٠

(٣) كتاب الرّوضتين ٣/٢٨١